راينر ماريا ريلكه

سونيتات إلى أورفيوس

القسم الثاني

(نشرت «الكرمل» في عددها السابق القسم الأوّل من عمل ريلكه الشعريّ «سونيتات إلى أورفيوس». وشاءت التباسات مطبعيّة أن يسقط التنويه بأنّ الأمر كان يتعلّق بالقسم الأوّل من العمل مثلما قسّمه الشاعر نفسه، كما جاء القسم المذكور متبوعاً بثلاث سونيتات من القسم الثاني. نلفت هنا انتباه القارئ الكريم إلى أنّ القسم الأوّل ينتهي مع نهاية السونيتة السادسة والعشرين منه، وبالذات مع نهاية البيت القائل: «لَما كنّا الآنَ هؤلاء الذينَ يَسمعون وهذا الفمَ للطبيعة»، ونقدّم له هنا النصّ الكامل للقسم الثاني، متبوعاً بحواشيه.)

–١–

أنْ نتنفّسَ، يا للقصيدةِ غير المرئيّة !
بلا انقطاعٍ، وبنقاء، وبِثمن
الكيان ذاتِه، الفضاءُ المحوَّلُ. ميزانٌ مضادّ
أتحقّقُ بمقتضاهُ إيقاعيّاً.

موجةٌ واحدةٌ أنا
بحرُها المضطرد ؛
بينَ جميعِ البحار الممكنةِ أنتَ يا مَن تَصون –
يا فضاءً نَحوزُه.

من هذه الأماكن كم من فضاءاتٍ كانتْ من قبل
في داخلي؟ رياَحٌ كثيرة
هيَ كمثْلِ أبنائي.

يا هواءُ، أتعرفني، أيّها المترعُ بأماكنَ كانتْ ليَ بالأمس ؟
أنتَ يا مَن كنتَ اللّحاءَ الصقيل،
لكلماتي، انحناءاتها والورَقة.

–٢–

مثلما، بمجرّد أن تلمسها اليد،
تأخذُ الورقةُ مَن الفنّانِ السمةَ الصحيحة،
فالمرايا هي أيضاً أغلبَ الأحايين تخطف
من الفتياتِ ابتسامتهنّ الفريدةَ شِبهَ المقدّسة،

عندما يجتزنَ الاختبار في الصبح وحيدات
– أو تحتَ ألق الأنوار الخدوم .
ثمّ في تنقّس الوجوه الحقيقيّة،
لا يسقطُ بعدَ ذلكَ سوى الانعكاس.

ما أبصرثه قديماً، هذه العيون،
يحترق بطيئاً في الموقد المجلّل بالسَّخام :
نظراتٌ للحياةِ ضائعةٌ أبداً.

آه مَن يعرفُ خساراتِ الأرض؟
وحدَهُ ذلكَ الذي، بنَبرِ مديحيّ،
يُغنّي القلبَ، القلبَ المَولودَ من أجل الكلّ.

–٣–

يا مرايا : لا أحدَ وصفَ بمعرفةٍ

ما أنت في جوهرك.
أنت، يَا فواصلَ للزمن ملآى
بثقَوبِ مناخلَ وليسَ أكثر.

أنت المعطاء، حتّى بالصالة الفارغة،
يا عَميقةً، في المساء، مثلَ الَغابات.
كإيّل ذي ستّةَ عشرَ قرناً، تجتازُ الثريّا
عالمكَ المتعدّرَ على النفاذ.

أحياناً تملؤك لوحات.
بعضها تبدو فيكِ كما لو في بيتها ؛
أخرياتٌ، بوجلٍ، أقصيتِها عنك.

إلاّ الأجملَ فستمكثُ هُناك – حتّى
في بكورةِ خدّيها، يتوغّلَ،
شبهَ ذائبٍ من قبلُ، نرجسُ الجليّ.

– ٤ –

آه، إنّهُ الحيوان الذي لم يوجد أبداً.
هم ما كانوا ليعرفوا عنه شيئاً، ومع ذلك
فلإهابه، لمظهره، لجِيده، بل حتى
لنورِ نَظرتهِ الوَادعةِ، أَحَبّوه.

صحيحٌ أنه لم يكن. لكنْ لأنهم أحبّوه
فقد انوجدَ. حيوانٌ خالصٌ. دائماً كانوا يدعونَ لهُ الفضاء.
وفي ذلكَ الفضاء المُوَقر، والنيّر، بعذوبة
رفَعَ هوَ رأسَهُ، في شِبهِ عدمِ حاجة

لأنْ يكون. ما كانوا يغذّونهُ بالحبوب
بل بإمكانِ أنْ يكونَ، بهذا وحدَه،

ولقد مَنحهُ ذلكَ من القوّة،

بحيثُ استنبتَ لنفسه قرناً في جبهتهِ. وحيد القرن (١) (٢).
ثمّ دنا، أبيضَ تماماً، مَن عذراء
وانْسكبَ في مرآة الفضّةِ. ومن ثمَّ فيها.

-٥-

أيّها العضَل الزهريّ، يا من تفتح لشقائق النعمان
بدرجات بطيئة صباحَ المروج،
حتّى تسكب السّموات في قلبها
نورها وموسيقاها المتعدّدة الأنغام،

أيّها العضل المبسوط للاستقبال غير المتناهي
صوبَ هذه النجمة – الزهرة المجلّلة بالصمت،
أيّها المثقلُ بكلّ هذا الثراء حتّى
لا تكاد، إذْ ترتسم علامة المغيب، تقدر

أن ترتدّ إليكَ حوافُّ تويجاتك
المرتمية في التفتّح المَديد :
أنتَ، يا قوّةً وقراراً لكلّ هذه العوالم !

ندومُ، نحنُ العنيفين، أكثر.
لكنْ متــىَ، في أيّ وجود مميّز،
ننفتحُ لنستقبِلَ أخيراً ؟ً

-٦-

يا وردةُ، يا مَن تحكمينَ، أنت ما كنت،
للأقدمينَ سوى كأس بحوافَّ بسيطة (٣).
لكنّك لنا الزهرةُ الملأَى والتي لا تُعَدّ،
إنّكِ لَنا الشيءُ الذي لا يُستَنفَد.

من الثراء أنت بحيثُ تبدينَ لابسةً ثوباً على ثوب
جسدَك الذي لَيسَ سوى ائتلاق ؛
لكنَّ تويجَك لوحده هوَ أيضاً
رفضُ كلِّ رِداءٍ، تكَذَيبُه.

من قرون خللَ عطرك تأتينا
الأسماءُ الأكثر عذوبةَ ؛
وهوذا ينتشرَ فجأةً في الهواء كمثْل مَجْد.

لكنْ أنْ نسمّيه، كلاّ، لا نعرفُ. إنّما نحاول...
وهي ذي في اتّجاهه تعلو الذكرى
التي كنّا نستحضرها في الذاكرةِ ساعات.

-٧-

يا أزهارُ أنت شقيقاتُ الأيدي التي تُرتّبُك !
(أيدي صبايَا أمس واليوم)
عندَما، على امتدادَ طاولة الحديقة،
كنتِ تنطرحينَ، شِبهَ منهَكةٍ، ومجروحةً برقّة،

منتظرةً أن يستعيدك الماءُ ثانيةً
من الموت المبدوء به – وبعدَ ذلك
مرفوعةً من جديد بَين أقطاب
الأصابعِ الحسّاسَةِ، التي تصوتُكِ أكثر

ممّا كنت تحسبينَ، أنت الخفيفة،
ثمّ منتصَبةً ثانيةً في الَجرّة،
والنداوةُ فيكِ تنفذُ، وحرارة الصبايا

منها تنبعثُ، واعترافٌ بخطايا مريبة
ارتكبنَها فيما يقطفنَكِ، في علاقة

تجمعهنّ بكِ في ذروة الازهرار.

-٨-

أنتم، يا أصدقاءَ طفولتي، النادرينَ بالأمس
في الحدائق المتناثرة في المدينة :
كنّا نلتقي بتردّد ونُسَرُّ بعضنا البعض
وكالحَمَلِ المتكلّمَ في الورقة (٤)،

نتحدّثُ صامتين. وإذا ما حدثَ وفرحنا
فلم يكنْ فرحُنا لأحد. لمنْ كانَ يا ترى بيننا ؟
ثمّ سرعانَ ما يذوبُ وسطَ الجمع العابر،
والخوف حيالَ السنةِ الطويلة !

حولَنا كانتِ العرباتُ تمرّ بغرابة ؛
وتنتصب بيوتٌ قويّةٌ وزائفة :
لا أحدَ منها عرَفَنا أبداً. ما الذي كانَ

حقيقيّاً في هذا العالَم ؟ وحدها الطابات. مداراتها الباذخة.
ولا حتّى الصغار... أحدهم أحياناً،
تحتَ الطابةِ الساقطةِ إلى حتفه وأسفاه يمضي.

(في ذكرى إيغون فون ريلكه)

-٩-

لا تَتباهوا، يا قُضاةُ، بالتعذيب (٥)
المُلغى، ولا بالأعناقِ التي لم يعدْ ليعصرَها الفولاذ.
لم يَسْمُ أحدٌ، ولا أيّ قلب، لمجرّد أنّ تصعيرة
من الرقةِ الطيّبةِ طبَعتْ بالرقةَ الزائفةِ قسماتكمْ.

ما تلقّتهُ المقصلةُ عبرَ الزمن تعطيه
بدورها، كما يفعلُ الصغيرُ بدُمية
عيد ميلاده السابق. في القلبِ النقَيّ، السامق والمنفتح على سعته،
يلجُ على شاكلةٍ أخرى إلهُ

الرقّة الحقّ. عنيفاً يلجُ
راشقاً كلَّ شيء، هو الإله، بشعاعه
أكثرَ ممّا تفعل الريح للسفنِ العظيمةِ الواثقة.

لا أقلَّ من هذا هي البداهةُ الصامتة الكتوم
التي تتغلغلُ فينا بهدوء كمثْل طفل
يلعبُ وقد وُلِدَ من اتّحادٍ بلا انتهاء.

-١٠-

تُسيءُ الماكنةُ للمكتَسَبِ الإنسانيِّ كلّه
طالَما حسبَتْ أنّها هنا لَتفكّر لا لتُطيع.
لم يعدْ لنا اليد المتردّدةُ ولا البطء الأجمل،
ننحتُ الحجرَ بأكثرَ نصاعةً، وبأكثر جسارةً نُشيّد.

لا تغيب عن أيّ مكان لنفلتَ منها ولو ليوم واحد،
في المصنع هي، هادئَةٌ، مزيَّتةٌ، وإلى نفسها تعود.
إنّها الحياةُ ! – تزعمُ أنّها قادرةٌ على كلّ شيء،
هيَ التي، بالحَسم نفسهِ، تُدبِّرُ وتَخلقُ وتَمحَق.

لكنَّ الوجودَ ما يزالُ عندنا نحنُ مسحوراً، وما يزال
في ألف محلٍّ هو الأصل. لعب قوىً خالصة
لا يلامسُهُ أحدٌ إنْ لم يجْثُ وَبهِ يُعجَب.

وما تزال كلماتٌ تمضي بحنوٍّ إلى ما لا يُقال...
والموسيقى، جديدة دائماً، وبأكثر الأحجارِ نبضاً،
في الفضاءِ غيرِ النافعِ هذا تُقيمُ هيكلها.

-١١-

أكثرُ من قاعدة، متّسقة وهادئة، للموت صيغَتْ،
منذُ أن واظبتَ على الصَّيد أيّهاً الإنسانُ الظامىء للهيمنة ؛
لكنْ أكثر من الأنشوطة والَشبكة أنت يا سَبيبةَ شراع
أعرف كيفَ تُنشَرين فيَ جوف مَغاورَ بلاد «الكارستً» (٦).

تُدَسّينَ بهدوء، كمثْل علامة
لسلام يُمَجَّدُ. ثمّ تُحرَّكينَ في كلّ اتّجاه
– وخارجَ الحُفَر، يُلقي الليلُ بحفنات
من حمائمَ بيضاءَ ولهى بالنور... هذا أيضاً

هو حقٌّ. لكنْ بعيداً عن الشّاهد فلتكن الندامة،
لا عن الصيّاد وحده الذي، عندَما تحيَن الساعة،
بعينه اليقظةَ ويده الحاذقةِ يُنفّذ الفعل.

ملمحٌ من حدادنا الهائم هوَ القتل...
في نظر الفكَر الصاحيَ نقيٌّ هوَ
كلّ ما يتحقّقَ ويكون خاصّتنا (٧).

– ١٢ –

رُم التَّحوُّلَ. كنْ متحمّساً للشعلة،
ما تنتزعهُ منكَ يتحوّل فيها بروعة.
الفكرُ الذي يتصوّر ويسود الأرضيّ
يحبّ في انطلاقة الخطّ أكثر ما يحبّ نقطة انحنائه.

ما ينحبسُ في الثابتِ من قبلُ متحجّر،
أيخالُ أنّه تحتَ الرتابَة الرماديّة أكثر أمناً؟
«إنتظرْ» : يهمس بالشظف شظفٌ أشدُّ، من بعيد.
يا للشقاء! – المطرقةُ الغائبةُ تُرفَع لتَضرب !

ترشد المعرفةُ مَن ينسكبُ كالنبع
وتقودهُ جذلاً عبر الموجود،
الذي ختامه غالباً بدايةٌ وختامٌ بَداؤه.

لا فضاءَ سعيدٌ إلا ابناً أو حفيداً لانفصال،
نجتازه مفتونينَ. «دافْنَيه» (٨) المُحوَّلة،
منذُ صارَ قلبُها غاراً صارتْ تشتهيكَ ريحاً.

– ١٣ –

إسبقْ كلَّ وداع كما لو كانَ
وراءكَ، كالشتاء الذي يدركَ الآنَ خاتمتَه.
ذلك أنّ بين الشتاءات شتاءً هو شتاءٌ بلا انتهاء
إذا اجتازَهُ قلبُكَ فسيَجتازُ كلَّ شتاء.

كنْ دائماً ميتاً في يوريديس، – ومغنيّاً أكثرَ فلتصعَدْ
وممتدحاً أكثرَ فلترْقَ في العلاقة الصافية.
بينَ الفَانينَ، هنا، في ملكوت الانحَدار،
كنْ البلّورَ الصادحَ الذي ينكَسر في الصوت من قبل.

كنْ – واعرفْ في الأوان نفسه شرطَ عدم الكون،
ذلك الغور غير المتناهي لاختلَاجكَ الصميم،
وامنحْ هذا الاختلاجَ هذه المرّة كاملَ انعقاده.

للطبيعة المستخدَمة أو النائمة والخرساء،
لهذا الخزّان الشاسع، لهذا المجموع الذي لا يوصَف،
تعالَ وانضَفْ متهلّلاً وحطّمِ العَدَد.

–١٤–

أنظر الأزهارَ، انظرْ وفاءها للأرضيّ،

نُعيرُها مصيراً في هدُبِ المصير،
لكنْ مَن يدري ؟ إنْ يكنَ يؤسفها أنْ تذبل
فَعلينا نحنُ أن نكونَ أسَفَها.

كلُّ شيءٍ يُهفو إلى الطيران. وحدنا نحنُ ننطرح
على كلّ شيء. نُثقلُ ويفتننا ثقلنا هذا.
يا لَنا من سادةٍ للأشياء مفترسين،
ذلكَ أنّها تجدُ فَي الطفولة الأزليّة سعادتَها.

مَن أخذ الأزهار في قلب رقاده ونام
عميقاً – : فمن هذا العمَق المشتَرك،
في الفجر الناشيء، سينبثق جديداً، وخفيفاً.

بل ربّما بقيَ هناكَ؛ وهنّ سيُزهرن
مُطْريات على هذا المُهنَدي، حافظات شبيههنّ
هنَّ، شقيقاته الصامتات في ريحِ الحقول.

–١٥–

يا فمَ النافورةِ، يا واهبُ، يا فماً ليس يتعب
من قول الواحدِ، النقيّ؛
– إنّكَ عَلى الوجَه المنسابِ للماء،
قناعُ مرمرٍ. ومن العُمقِ،

تسيرُ الأنابيبُ. مارّةً بالقبور،
من بعيد تأتي بكَ، من سفح «الأبنين» (٩)،
تحملُ لكَ قولكَ الذي يسيل
بإزاء ذقنكَ المسودّ الشائخ

حتّى الآنية التي تتلقّاه.
هذه الأُذن الغافية المنطرحة
أذُن المرمرِ الذي تتحدّثُ فيها أنتَ دوماً.

أذنٌ للأرض. مناجيةً نفسها هكذا
دون انقطاع. ما إنْ تظهر جرّة
حتّى يبدو لها أنّكَ تُقاطعها.

-١٦-

ممزَّقٌ ومعادٌ تمزيقُهُ دوماً من جديد
هو مقام الإله، هذا الذي يشفي.
نحنُ، الباترينَ، طالما أردنا أن نعلم ؛
أمّا هو فصفاءٌ وقسمة.

حتّى القربان المكرّس النقيّ،
لا يتقبّلُهُ هوَ في عالمه من دونِ
أن يُجابهَ هذه المبادرةَ الحرّةَ
بعدمِ اكتراثه.

وحدَهُ الميتُ يقدر أن يشرب
من النبع الذي لا نفعل هنا سوى أن نسمعَه،
عندَما يلوِّحُ له الإلهُ، هو الميت.

لا نوهَب نحن سوى الصخب.
الحَمَلُ يبكي مطالباً بجَرسه،
لكنْ انطلاقاً من غريزته المجلّلة بالصمت.

-١٧-

أينَ، في أيّةِ حدائقَ مسقيّةٍ بروعة، وعلى أيّة
أشجارٍ، في كؤوس أيّة أزهارٍ مفتَرَعة برقّة،
تَينَعُ ثمارُ التعزيةِ العجيبةُ؟ هذه الثمار
التي قد تقدرُ أن تلقَى إحداها في البساتين

المسحوقة لفقركَ. من مرّة إلى أخرى،
تُفتَنُ بفَخَامة الَثمرة، بكمالها غير
الممسوس، بلَدانة قشَرتها، وبأنّهَ لم يحرمْكَ منها
لا الطائرُ الرشيقُ، ولا الدّود

الغيورُ، تحتُ. أثمّةَ إذَنْ أشجارٌ محفوفةٌ بطيران الملائكة،
ويداريها بمثل هذه الغرابة بساتنةٌ متمهّلون كتَومون،
بحيثُ تحملُ لَنا ثمَارها منَ دون أن تعودَ إلينا ؟

هل استَطعنا مرّةً، نحن الظلال، نحن الأطياف،
بأفعالنا اليانعة واليابسة قبل الأوان،
أن نُعكّرَ صفاء هذه الأصياف غير المكترثة ؟

– ١٨ –

أيتها الراقصةُ، يا مَن تحُوّلين
كلّ ما يمرّ إلى خطوة : لتهبيه بعدَ ذلك.
ثمّ هذه الدوامةُ، هذهً الحركة المحوَّلةُ شجرة،
أما استحودَتْ على اندفاع السنة كلّه ؟

أوَ لم تُزهر ذروتها الصامتة، فجأة،
لتحيطَ بها، موكباً، اندفاعاتُك القديمات ؟
أوَ ما كان ثمّةَ شمسٌ، صيفٌ، َحرارة
هذه الحرارةُ غير المحدودة التي منكِ تنبع ؟

لكنَّ شجرةَ جذلَك وهبت الثمار أيضاً.
أوَ ليس من ثمارهَا الوادعة الابريق
البالغُ النضج، ثمّ، أكثر نُضَجاً منه، الجرّة ؟

وفي عمق الصُّوَر، أما بقيَ الرسم،
اللمسة المَعتمة لحاجبك
المرسومة سريعاً على جَدار دورانكِ نفسه ؟

-١٩-

للذهب، أنّى كانَ، وحيثُما دُلِّلَ، منزلهُ في المصارف،
ولآلاف الناس هوَ الخدْنُ الأليفُ. لكنّ هذا الأعمى،
المتسوّلَ، حتّىَ من أجل فلس من النحاس، هو كمثْلِ
محلٍّ ضائعٍ، ركنٍ تحتَ الخزّانةِ مُغبرّ.

المالُ في المَتاجِر كأنّه في بيته،
حيثُ يتنكّرُ في الحرير والمخمَل والفرو.
والآخرُ يقفُ صامتاً في استراحة نَفَس
المالِ كلّهِ الذي يتنفّسُ في اليقظةَ أو النَوم.

هذه اليدُ المفتوحةُ دائماً كم يلذّ لها أن تنغلق في الليل.
غداً يستافها القدرُ، ويوماً بعدَ يوم
يبسطها : جليّةً، بائسةً، ومعطوبةً بلا انتهاء.

أما من بصيرٍ مندهش من ديمومتها الطويلة،
يفهمها أخيراً ويُمجّدهَا؟ لا تبوحُ بنفسها إلاّ لَمَن يُغنّي
ولا يسمعها غيرُ الإلهيّ.

-٢٠-

كم من المسافة بينَ الكواكب ! لكن كم هيَ أكبرُ المسافة
التي نتعلّمها على الأرض !
واحدٌ، مثلاً، صغيرٌ... وآخرُ، قريبٌ تماماً -
آه ! يا له بُعداً يتعذّر على القبض !

المصيرُ : ربّما كانَ يقيسُنا بمقتضى ما يكون
ولذا يبدو لنا غريباً ؛
فكّرْ بعدد الأشبار بينَ الرّجل والفتاة
التي تهربُ منه، غَيرَ مفكّرةٍ إلاّ بِه.

كلُّ شيءٍ مسافةٌ ، – والدائرةُ لا تنغلقُ في أيّ مكان.
أنظرْ، فيَ الصحن، على المائدةِ المنصوبةِ بفرَح،
الوجهَ الغريبَ للأسماك.

الأسماكُ خرساءُ... ربّما فكّر أحدٌ ذات يوم. منْ يعلم ؟
لكنْ أما من مكان نتكلّم فيه، بدون الأسماكِ،
بما قد يكونُ لغنَّها ؟

–٢١–

غَنِّها، يا قلبيَ، تلك الحدائقُ التي لستَ تعرف ؛
شبه الذائبة في البلّور، الشفّافة والتي لا تُطال.
الماء والورد في إصفهانَ أو شيراز،
غَنِّها في سعادةٍ، امدَحْها، هيَ التي لا تُضاهى !

أثبتْ، يا قلبي، أنّها أبداً لا تنقصُكَ.
أنّ تينَها ينضجُ مفكّراً بكَ.
أنّكَ عبرَ أغصانها المزهرة تُحاور
نسائمها المحوّلةَ وجوهاً.

تَفادَ خطأَ الاعتقاد بنقص ما
ما دام اتُّخذَ القرارُ : هذا : أن نكون !
هوذا أنت تلتحمُ بالنسيجِ خيطَ حرير.

أيّاً كانَ الرسمُ الذي تنخرطُ أنتَ فيه
(وإن يكنْ في لحظة من العذاب) فما يهمّ
– ينبغي أن تُحسّ بهذا – هوَ كاملُ السجّادة الباذخة.

–٢٢–

آه، رغمَ القدرِ، الانثيالات الفذّة

لحياتنا هُنا، وامتلاؤها في الحدائق،
أو الرجال من حجر، ينتصبون تحت الشرفات
شبه ملامسين عقودَ البوّابات العظيمة.

يا لناقوس البُرُنز، مطرقته المرتفعة
كلَّ نهار بإزاء الخمول اليوميّ ؛
أو العامُود الوحيد في الكرنك، آه العامود
الباقي بعدَ معابدَ شِبهِ أبديّة.

هذه الفيوضُ كلّها ما هي الآنَ إلاّ
لهفةٌ لمغادرة النهار الأفقيّ الأصفر
إلى الليلِ المعميِّ بمزيدٍ من النّور.

لكنَّ الذعرَ لا يدوم ولا يُبقي أثراً.
منحنيات الطيران في الجوّ وأولئكَ الذين رسموها
ربّما لم يكن فيها مَن عبثٍ. ما إنْ تكون مفكَّراً بها.

-٢٣-

نادني (١٠) في هذه الساعة من ساعاتِك
التَي تُقاومكَ أكثر:
الدانية والتي تتوسّل كوجه الكلب،
لكنِ الهاربة دوماً من جديد

عندَما تحسبُ أنّكَ قبضتَ عليها أخيراً.
ما يهربُ منك هكذا هو الأكثرُ عائديّةً إليك.
أحرارٌ نحنُ. نحنُ الذين طُردنا
حيثُما كنّا نحسبُنا محتفىً بنا.

خائفينَ، ننشد سنَداً،
نحنُ البالغي الصغَر في الغالب أمامَ القديم،
والبالغي الهرَمِ أمامَ ما لم يكُ أبداً.

لكنّنا لا نكون وأسفاه صحيحينَ إلاّ
عندما بالمديح ننطقُ، نحن الفولاذ والغُصن
ورهافةُ الخطَرِ الذي يَنضج.

-٢٤-

يا للمتعة المتجدّدة أن نكون من صلصال رخو !
لا أحدَ كاد أن يساعدَ الأوائلَ الذين اجترأُوا.
ومعَ ذلكَ قامت المدن على خلجانٍ مباركة
والماءُ والزيتُ في الجِرار فاضا.

الآلهةُ، نرسمهم أوّلاً في مشاريعَ متعاظمة الجرأة،
ثمّ يأتي ليحطّمهم القدرُ الزّاجِر
لكنّهمُ خالدون. انظروا، إنّنا نَقدرُ أن نتعلّم
الإصغاءَ لمن سَيستجيبُ لنا أخيراً.

سلالةٌ نحنُ من آلاف السنوات : آباءٌ وأمّهات
يُكملهم أكثرَ فأكثرَ كلَّ يوم الطفلُ القادم،
ليزعزعَنا، من ثمَّ، إذْ يتجاوَزُنا.

كم من الأزمنة لدينا، نحن المجازفينَ بلا انتهاء !
والموتُ الصامت وحدَهُ يعلم مَنْ نَحن
وما يُحقّقُ دائماً من نفعٍ فيما يُقرِضُنا.

-٢٥-

هوذا - فلتسمعْه - صخب الآلات الأولى (١١)
في العمل : هي ذي وتيرةُ البشر من جديد
في الوداعَة المتكتّمة للأرض الصلبة
لدى دنوّ الربيعِ. لكَ يبدو في كامل مذاقه

ما يأتي. ما كنتَ رأيتَ
من قبلُ يبدو لكَ ثانيةً
جديداً تماماً. ما تشهّيتَ دوماً
والذي أبداً لم تمسكْ بهِ. هوَ بكَ أمسَك.

سنديانات الشتاء حتى أوراقها
يبدو لها في المساء سُمرةُ مستقبل.
غالباً، النسائمُ تَتَنَادى.

سوداءُ هي الأدغالُ. لكنْ أكثر سواداً
هي أكوام الزبل في الحقول.
كلّ ساعةٍ تمرّ تزدادُ شباباً .

-٢٦-

ألا كم يأسرنا صراخُ الطائر...
صرخة، أيةُ صرخة، بمجرّد أن تُطلَق.
لكنَّ الأطفالَ، مَنْ في الخارج يلعبون،
يطلقونَ صراخاً يبتعدُ من الآن عن الصّرخةِ الحقّ.

إنّهم يصرخونَ الصدفةَ. في فواصل
هذا الفضاء، فضاء العالم (الذي يخترقه
سالماً صراخُ الطائرِ كما يخترق الرجالُ الأحلام)
يدفعون أظافرهم وَأظافرَ صيحاتهم.

آه ! أينَ نحنُ ؟ ما فتئنا منطلقين
كطيّارات ورقيّة فالتة من خيوطها، ننزلقُ
في منتصَفِ العلَوِّ، مُزَيَّنينَ بالوحل.

وممزّقينَ بالريح. – ألا فلتُنظِّم الصارخين،
أيّها الإله المغنّي ! وليستيقظوا في الصخب
كالتيّارِ الحاملِ القيثارَ والرأس.

-٢٧-

أموجودٌ هوَ حقاً، الزمنُ الذي يُحطِّم ؟
متى يُقوّضُ القلعةَ في الجبلِ الآمن ؟
هذا القلبُ، العائدُ الى الآلهة بَلا انتهاء،
متى يمارس عليه عنفَه الإلهُ الفاطر ؟

أوَ نحنُ إلى هذه الدرجةِ هشّونَ قلِقون
مثلما يريد القدرُ أن يوهمَنا به ؟
والطفولةُ، هذه العميقةُ، الواعدة
في جذورنا، أتكون فيما بعدُ خرساء ؟

آه، إن شبحَ الزائل
كالدخان يخترقُ
كلَّ ما ينفتح للقائه بدونِ مكر.

مهما نكن مندفعينَ، فلنا قربَ
القوى التي تدوم،
قيمةُ مَشغلةٍ إلهيّة.

-٢٨-

آه، روحي وتعالي (١٢). يا راقصةً ما تزال شِبه طفلة،
أكملي للحظة صورةَ الرقص هذه
ولتكن كوكبةً خالصةً لواحدة من هذه الرقصات
التي نتجاوزُ فيها، نحنُ المخلوقينَ لنزول،

الطبيعةَ التي تنظِّمُ ببلادة، والتي لم تنفعل
وكانت كلّها إصغاءاً إلاّ عندما غنّى أورفيوس.
كنت أنتِ المنفعلة يومذاكَ، دُهشتِ قليلاً
عندما، بَعدَ تردّدٍ، شرعتْ شجَرةَ

بالسّير وإيّاك بمقتضى السمع.
كنت ماَ زلت تَعرفينَ الموضعَ الذي يتعالى فيه
هديرُ القيثارَ –؛ المركزَ العجيب.

من أجله جرّبت أجملَ خطواتك
وأنت يَحدوك الأملُ في أن تُديري ذات يوم
خطوكَ ومحيّاكِ الصّديقين صوبَ العيدِ المُطلَق.

–٢٩–

أيّها الصديقُ الصامتُ (١٣) للمسافات المتعدّدة،
أنظرْ كيفَ ما يزال نفسُكَ يُضاعف الفضاءات.
في الهيكل المظلم للنواقيس
كُنِ الرّنينَ. ما يتغذّى منك

يصبح بهذا الغذاء أقوى.
لُجِ التّحوُّلَ مراراً. ما هيَ
تجَربتُكَ الأكثرُ إيلاماً ؟
أوَ تلفي الشرابَ مُرّاً ؟ لِتَكُنْ إذَنْ نبيذاً.

في هذا الليل المهول كنْ
القوّةَ السحرَيّةَ عندَ تقاطعِ حواسّك،
معنى التقائها العجيب.

وإذا ما نسيَكَ الأرضيّ،
فقُلْ للأرض الساكنة : إنّني أجري.
وللماءِ المُسرعِ، قُلْ : أَنا أكون.

ترجمها عن الفرنسيّة وطابقها مع النصّ الأصليّ:
كاظم جهاد

حواشي الشاعر والمترجم:

(١) : «القارن» أو «وحيد القرن» هو حيوان إسطوريّ بحجم الحصان كان الأقدَمون يفترضون له قرناً في وسط الجبين. راجع أيضاً الحاشية التالية لريلكه.

(٢): دائماً، كان العصر الوسيط يجمع وحيد القرن بالعُذريّة. فهذا الحيوان الأسطوريّ، غير الموجود في نظر غير العارفين، ينالُ وجوداً ما إن يظهر في «مرآة الفضّة» التي تمدّها له العذراء، أو ما إن يظهر «فيها» (في العذراء) كما لو في مرآته الثانية، التي هي بصفاء الأولى وحفاوتها (ريلكه).

(٣) : وردة الأقدمين هي شقيقة نعمانٍ بسيطة حمراء وصفراء، بلونَي الشعلة. ما نزال نراها أحياناً في حدائق «القاليه» السويسرية (ريلكه).

(٤): الحَمَل (الرمزيّ) في البيت الرابع هو هذا الذي لا ينطق إلاّ بالرجوع إلى نصّ مخطوطٍ على يافطة (ريلكه).

(٥) : هذه قطعة مُفارقة، فريلكه يدعو القضاة والحاكمين الى عدم التبجّح بكون المقصلة، كأداةٍ للإعدام، قد اختفت، لأنّ أدوات أخرى ما فتئتْ تُخترَع في العالَم. ثمّ يعود ويؤكّد على أنّ ما تستلبه المقصلة من الحياة، تقوم الحياة باستعادته «من بابٍ آخر»، في سياقٍ للتجدّد لا يعرف انقطاعاً.

(٦) : الاشارة هنا الى طريقة للصيد قديمة. ففي بعض مناطق «الكارست» [اليوغوسلافيّة]، كان الصيّادون يجتذبون حمائم المغارات البيضاء بأن يعلّقوا في الكهوف، ببالغ العناية، خرَقاً بيضاء يهزّونها بعد ذلك بطريقة معيّنة لإفزاع الطيور وإخراجها من أعشاشها ومخابئها، حيثُ تُقتَلُ فورَ خروجها (ريلكه).

(٧) : يبرّر ريلكه هنا الصيد من زاوية معيّنة، ويرى أنّ هذا الأمر المُرعب يشكّل جانباً من عتامة مصيرنا البشريّ.

(٨) : في الميثولوجيا اليونانيّة، يُغرَم أپولون بالحوريّة «دافنيه»، فتتحوّل هذه، هرباً من ملاحقته، الى شجرة غار.

(٩) : سلسلة مرتفعات في إيطاليا.

(١٠): هذه السونيتة تخاطب القارئ (ريلكه).

(١١): هنا نجد «مُقابِل» أغنية الربيع الصغيرة في السونيتة الحادية والعشرين في القسم الأوّل (ريلكه).

(١٢) : هذه السونيتة موجّهة الى ڤيرا (ريلكه).

(١٣) : موجّهة إلى صديقة لڤيرا (ريلكه). إضافة من المترجم: ومع ذلك، فالشاعر يصوغ ضمير المخاطب على التذكير ("Freund": «صديق» بالألمانيّة)، ليمنح الخطاب صيغة أكثر شموليّة. فالانسان عموماً هو المخاطب من وراء صديقة الراقصة.